مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 13 العدد: 04 السنة 2021 ص 471 - 490

تاريخ الإرسال: 2020/01/19 تاريخ القبول: 2020/10/11
تاريخ النشر: 2021/10/11

تطبيقات مصطلح التشاكل في النقد الجزائري المعاصر عبد القادر فيدوح أنموذجا

Term overlap applications in the cotemporary algerian critic Abd elkader Fidouh model

[1] محمد درويش، [2] أ.د رضوان جنيدي
[1] المركز الجامعي تامنغست (الجزائر)، prom.auto10@hotmail.fr
[1] مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تامنغست
[2] المركز الجامعي تامنغست، salimdjenidi@yahoo.fr

الملخص:

يعد مفهوم التشاكل جزءا من المنظومة الاصطلاحية للمقاربة السيميائية، يكشف الدلالة النصية إلى جانب مفاهيم أخرى وفق ترابطها المنطقي الدلالي، وذلك من خلال الانتقال من مستوياتها السطحية إلى مستوياتها العميقة.

يقدم النقد السيميائي الجزائري المعاصر قراءته الخاصة التي تخضع إلى مرجعية كل دارس في قراءته للمفهوم التشاكل، وهذه القراءة تجمع بين تجلي المفهوم في الدرس الغربي وتلقيه في الطرح العربي؛ ولعل أهمية الدراسة تبرز في تتبع هذا المفهوم من خلال نماذج الممارسة النصية في المنجز النقدي الجزائري المعاصر، ومحاولة رفع اللبس عنه بتقديم صورة واضحة؛ وبالاعتماد المنهج الوصفي التحليلي واستخلاص النتائج سنسعى إلى الإجابة عن السؤال التالي: كيف استطاعت الممارسات السيميائية الجزائرية قراءة مصطلح التشاكل؟

الكلمات المفتاحية : السيميائية الفرنسية؛ مفهوم التشاكل؛ تطبيقات التشاكل، النقد الجزائري.

Abstract:

The term overlap is a part of the semotic theory reveal the textual meaning by moving from surface level to deep level , contemporary algerian semiotic criticism presents its own reading which refer to each reader according to his concept about overlap , and this concept is combining between western and eastern lesson and its manifestation in the arabic substraction from the old tradition . The interest of this study coming from following this concept in the practice of contemporary algerian criticism, and by introducing it and giving a clear sight about it, by using description and analysis, then we try to answer about the following question :how can the algerian semiotic practices read the concept of overlap.?

Enter your abstract here (an abstract is a brief, comprehensive summary of the contents of the article).

Keywords: French semiotics; concept of interference; interference applications, Algerian criticism

---

المؤلف المرسل: محمد درويش، الإيميل: PROM.AUTO10@HOTMAIL.FR

1.مقدمة:

عدّ مصطلح التشاكل من أبرز المصطلحات الإجرائية في البحوث السيميائية؛ وقد عرف هذا المصطلح تداخلا بين القديم والحديث من جهة، واختلافا بين الموروث العربي والغربي من جهة أخرى. وهذا يقودنا إلى محاولة بحث المصطلح في مظانه الغربية وعند متلقيه العرب خاصة النقاد الجزائريين بغية ضبط حدوده وهو العسير على القبض والإحاطة، كي نحقّق القراءة النّقدية التي تأسّست عليها النّظرية السّيميائية وِفق المدرسة الفرنسية .

وستحاول دراستنا الإجابة عن الأسئلة التالية: ما حدود الاختلاف في دلالة مصطلح ؟ وهل تمكّنت التّطبيقات السيميائية الجزائرية عبر إجراء التّشاكل من تحقيق فاعليته الواسعة الدلالة المتشعّبة المفاصل ضمن نظرية غريماس الفرنسية ؟؛ إن ذلك يقودنا إلى بحث أصول المصطلح في جذوره الغربية والفرنسية تحديدا، ثم تحوّله للدراسات النقدية العربية من خلال تّلقي النقد الجزائري له.

2. مصطلح التشاكل في النقد السيميائي الفرنسي:

أسست المدرسة السّيميائية الفرنسية لمجموعة من الأفكار السيميائية النظرية وفي طياتها حمولة من المرجعيات اللغوية أولا والنقدية ثانيا، وهي تؤسّس لخطاب نقدي –وربما لخطابات وليس خطابا واحدا– خاصة عندما تكشف عن غناها بكثير من المفاهيم والمصطلحات والإجراءات متقاطعة مع خطابات أخرى –تبتعد تماما عن الخطاب اللّغويّ– نشير إليها بالأنساق غير اللّغوية التي فرضت وجود مفاهيمها وآلياتها ضمن النظرية الفرنسية، لتكون طرحا شاملا لا يقصي أي خطاب.

تملك نظرية غريماس بعض المصطلحات النظرية تؤهلها أن تُوصف بإستراتيجية خاصة ومُحكمة الأجزاء تنأى عن جزئية التّحليل بإجراءات شاملة في إطار الخطاب السيميائي، وهنا نعني مصطلح التّشاكل الّذي اشتغلت عليه كثير من الدراسات واختلفت في تحديد مفهومه والذي أسهم من حيث هو إجراء تحليلي وإستراتيجية سيميائية في تفسير الدّلالات الكامنة في النّص من حيث الشكل ومن حيث المضمون؛ أي إنّه يقدم مسحا دلاليا وافرا سطحا وعمقا، ويكفي أن ندلّل على ذلك بكون المفاهيم التي يحملها التّشاكل تمثل المبنى اللفظي داخل التركيب اللغوي للنص، إلى جانب المعنى التّشاكلي– إن صحّ التعبير– بين تركيب وآخر.

وتتضح مسألة اتساع هذا المصطلح في وصف الدلالات وتفسير كل العلامات، قد يصرح بها اللفظ من حيث أنّه صورة تُجسّد التشاكل، أو تأويلٍ نصل

به إلى المعاني من زاوية أخرى له. والسؤال المطروح بهذا الصدد: أيّ مفهوم يحقّ لنا الأخذ به كإستراتيجية في التحليل السيميائي، إذا أقررنا باختلاف المفاهيم حول مصطلح التّشاكل وضبطه؟؛ وإن اهتمام السيميائية الفرنسية –نظرية غريماس– بالبحث في الدلالة وتوالدها، جعلها في المقام الأوّل مستندة على علم الدّلالة، وكان نتاج ذلك تأسيسها المنهجي منوط بهذا العلم، فجماع "القول أنّ نظريّة غريماس تستمدُّ أصولها المعرفية من الدلالية[...] ووسيلتها في ذلك تفجير الخطاب وتفكيك الوحدات المكونة له، ثم إعادة بنائها وفق جهاز نظري متّسق التّأليف"[1]؛

فقد اعتمدت الدراسة السيميائية عند غريماس على خطوات منهجية وإجرائية حصرها صاحب كتاب (في الخطاب السردي نظرية غريماس) في مستويين[2]: فأما المستوى الأول منهما، فهو المستوى السطحي، ويتكون من مكونين هما المكون السردي والمكون التصويري (البياني)؛ وأما المستوى الآخر، فهو المستوى العميق، الذي يختص بدراسة البنية العميقة، وفيه يتم التّعرّض إلى دراسة التّشاكلات أو كما يطلق عليها صاحب الكتاب (القطب الدّلالي)، ثم استخلاص المربّع الدّلالي، ونقف تحت هذا المستوى الأخير عند مبحث التّشاكلات، لنحاول من خلاله قراءة مصطلح التّشاكل وتحديد مفاهيمه المتعددة في الدرسين الغربي ثّم العربي.

يعد مصطلح التشاكل جزءا من عملية إستراتيجية وتشريحية– إن صحّ التّعبير– شاملة تعمل على إنتاج الدّلالة وتناسُلها داخل النّص، وهو ذو وظيفة مصاحبة " لضروب العلاقات المنتظمة بين الوحدات المكونة للنسيج النصي"[3]؛ ويتم ذلك وفق بنيتين أساسيتين ومتباينين: إحداهما بنية سطحية ظاهرة قابلة التجلي، والأخرى بنية ضمنية عميقة نسعى من خلالها إلى فك الغموض الذي يكتنفها.

تعود جذور المصطلح في الدّراسات الغربيّة إلى الإغريق القدامى، فهو" آت في أصل الوضع من جذرين يونانيين، أحدهما هو (Isos)، ومعناه يساوي أو

مساوي، والآخر هو(Topos)، ومعناه المكان، فقيل Isotopies، فكأن هذه التركيبة تعني المكان المتساوي، أو تساوي المكان، ومع مرور الوقت أصبح هذا المصطلح يطلق توسعا على الحال في المكان، من باب التماس علاقة المجاورة [...] وكأنهم يريدون به كل ما استوى من المقومات الظاهرة المعنى، والباطنية المتجسدة في التعبير، أو في الصياغة الواردة في نسج الكلام، متشابهة أو متماثلة، أو متقاربة على نحو ما"[4].

يؤكد صاحب (معجم السيميائيات) أن الدّراسات الغربية تتفق حول أولية جوليان غريماس بنظريّته السّيميائية في تناول مصطلح التشاكل والبحث فيه، وتشاطرها الرأي في ذلك نظيرتها العربية[5]؛ ويبني صاحب كتاب (تحليل الخطاب الشعري: إستراتيجية التناص) حكمه في أولية هذا الناقد السيميائي الفرنسي في وضع مصطلح (التشاكل) على استغلاله الأبحاث العلمية واستنباطه المفهوم لتوظيفه في تطعيم دراساته اللّغوية، حيث عُدّ " أول من نقل مفهوم التشاكل من ميدان الفيزياء إلى ميدان اللسانيات"[6].

ويُقدّم غريماس تعريفه للتشاكل بعد نقله من أصله العلمي إلى ميدان اللّغة والبحث الدّلالي معتبرا التّشاكل "استمرار لقاعدة كلاسيمية متراتبة، تسمح بتغييرات لوحدات التمظهر بفضل انفتاح الإبدالات التي هي المقولات الكلاسيمية [...] وبفضله نتبين كيف أنَّ نصوصا كاملة تقع في مستويات دلالية متجانسة، أي كيف أن مدلولا كلّيّا لمجموع دالٍ [...] يمكن أن يُفسّر كحقيقة بنيوية للتمظهر اللساني"[7].

ويُختبر مصطلح التّشاكل في منظومته النّقدية الجديدة، بل ويتوسّع –من حيث كونه أداة– تبدو فاعلة بين أيدي الدّارسين، الذين "تلقّوهُ بالمناقشة والتمحيص[...] (و) سلّموا بوجاهته كمفهوم إجرائي لتحليل الخطاب على ضوئه، ولذلك نجده خضع لتطورات عبر تنقله لديهم"[8]؛ فيتجاوز مفهوم التشاكل منشئه

غريماس مُلامِسًا أفكار المدرسة الفرنسيّة من أتباعه أولا، وستكون آخِرًا بكيفيات مخالفة عمّا سبق به صاحبه سواء من حيث العمق في معانيه، أم شموليته في التّحليل، دون قصره أو حصره في زاوية محدّدة.

ويقدّم ج. كورتيس في المنحى نفسه قراءته للتشاكل بما يُوافق قراءات غريماس – نقلا عنه– متعلّقا بجنس الحكاية ومتبنّيا آراءه في كتابه (مدخل إلى السّيميائية السّردية والخطابية)، فيقول: "إن المفهوم [الأساس] للتشاكل يجب أن يُفهم كمجموعة متكررة من المقولات الدلالية (كلاسيمية) تجعل قراءة مُوحّدة للحكاية ممكنة، مثلما تنتج عن قراءات جزئية للملفوظات وعن حلّ ملابساتها، مُوجّهة بالبحث عن قراءة واحدة"[9].

يُؤكّد كورتيس تركيز غريماس في بحثه عن الدّلالة، فاكتشاف المدلولات هو أساس الدّراسة في نظريته، أي إنّه يجعل من الشّكل والتّعبير أو الملفوظ مطيّة لقراءة واستنباط المقولات الدّلالية الواسعة، ويتضح ذلك من خلال قوله: إن "اهتمام اللسانيات بالدّال فإن قليلا من الدّراسات اهتمت بالمدلول، وهذه هي الثغرة التي تسدُّها جزئيا أعمال غريماس التي تقع أساسا في مستوى المحتوى، فالعمل السيميائي الخالص سوف يهمل (جزئيا) في البداية مستوى الشكل اللساني من أجل العمل داخل حقل المدلول: بما يعني من بين ما يعني أننا لن نقصد هنا دراسة المستوى النّصي"[10].

ولا يظهر لنا اتجاه غريماس نحو دراسة المحتوى إهمالا مطلقا لمستوى التّعبير أو العبارة، وإنما عدّه شرطا من الشروط الوصول إلى المحتوى، وهو ما يُؤكّده قول كورتيس –نقلا عن غريماس– من أنّ فهم البنية الدّلالية لا يتحقّق إلّا بالانطلاق من نقطة تعدّ وجود العبارة أساسا لوجود المحتوى؛ كما يظهر لنا رأي كورتيس مناقشته لمفهوم التّشاكل لدى غريماس، وهو ما قد يفرض إعادة النظر في

مقولة بعض الدّارسين بأن غريماس قرأ التّشاكل من جهة المضمون دون الشّكل أو التّعبير.

ويبرز رأي آخر يعبر عن آراء المدرسة الفرنسية يمثله السيميائي (فرونسوا راستي)، الذي نقل –حسب اقتباسنا من ترجمات عربية– مصطلح التشاكل من حصر غريماس له في حدود المضمون، إلى جعله مصطلحا جامعا بين الشّكل والمضمون، ويعرف التّشاكل بعده قراءات متعددة وبسطا واسعا من تلامذة غريماس وغيرهم من الدارسين نذكر منهم: م.آريفي، وجماعة مو، وشابرول، وجون كلود كوكي، وكاترين كيربرا، إضافة إلى تصوّرات جماعة أنتروفيرن، حيث تضفي كل دراسة من هذه الدراسات السابقة عند هؤلاء شروطا خاصة، وضوابط يتحقق من خلالها المفهوم، والكيفية التي تجعل التّشاكل أداة أو منهجية تحقق انسجام النصّ وإزالة غموضه، والتي تكشف وحدة الدّلالة وتحققها في قراءة متّسقة ومنسجمة لأي نصٍّ مقروء.

ومما سبق يمكننا حصر الهدف من القراءة التّشاكلية في ضوء النّظرية الفرنسيّة في تحديد الأطر التي تجعل من التّشاكل جهازا فاعلا وناجعا على مستوى الجملة والتركيب ومستوى الخطاب من جهة، والبنى المنطقيّة التي تربط التمظهر اللّغويّ اللسانيّ–من خلال تكرار وحداتها– بالمقولات الدّلالية النّاتجة بفعل القراءة التّشاكلية من جهة أخرى.

كما يمكننا الوقوف عند مقولات بعض الدارسين –محمد مفتاح وعبد الملك مرتاض– في ظلّ انتقاداتهم للمنظِّر غريماس، فالقول بأنه قصر التشاكل على المضمون دون الشكل، حكم شاع عند كثير من الدارسين من العرب والغربيين، ونحن نرى أن تلك الأحكام تحتاج إلى إعادة نظر، وقراءة أخرى قد تثبِت عكس ما شاع، فإذا كان غريماس أوّل من نقل المصطلح من حقله العلمي الفيزيائي، وقد

أدرك تمام الإدراك أنّه في هذا الحقل مُتعلّقٌ بنظائرَ وذرات هي عناصر كيمائية محسوسة، فهل من المعقول أن يغفل غريماس –هذا الشكل الحسي– عندما نقل التّشاكل إلى مجال اللغة من حيث أنها–أي اللغة– تحمل شكلا وتعبيرا وتمظهرا لسانيا، يمثله اللفظ مركّزا بحثه في جانب المضمون..؟ إن حقيقة توجّه غريماس نحو المضمون ليس جهلا أو غفلة كما يتوهّم بعض الدارسين، بل هو قصدية تفرضها طبيعة البحث السيميائي ضمن مفهوم التّشاكل في تقصّي الدّلالة والمعنى.

وقد وجدنا ما يدعم رأينا في ما سبق في قول كورتيس أن اتجاه غريماس نحو الدّلالة ليس إلاّ جزئيا من أجل العمل داخل حقل المدلول، ثم إن إشباع الدراسات اللسانية حول الدال جعل غريماس يركّز اهتماماته على المدلول ليحقّق هدفه المنشود هو فحص البنية العميقة للنص، واستنباط ما أمكن من التّشاكلات الكامنة والمتعددة لا يمثل التّعبير أو الشكل فيها إلّا صورة ظاهرة للعديد من المدلولات التي حاول غريماس قراءتها، ومن هنا يمكن الإشارة إلى رأي يوسف وغليسي الذي أكد فيه أن غريماس قد أشار إلى تشاكلات عديدة دون التفصيل في ذلك أو إصدار حكم، وهو رأي يدعم رأينا. ثم من جهة ثانية حول ما تبناه راستي في انتقاد غريماس في إهمال التعبير، فقد تكون قراءة راستي غير مُركّزة ودقيقة، وكأن هذا الأخير أراد في دراسته ضرورة المساواة في التشاكل بين التعبير والمضمون، وبدا له أنه من الخطأ تغليب أو تغييب –ولو جزئيا– جانب على آخر (أي تغليب المضمون على الشكل) كما فعل غريماس.

ويدفعنا ذلك إلى أن نميل إلى رأي غريماس، لأن تغليب الدلالة أو المعنى(المحتوى) على الشكل هو من سمات البحث السيميائي؛ فالسيميائية تعنى بالبحث الدلالي وتأويل المعنى أكثر من الشكل، وما الشكل أو الملفوظ كتعبير إلا جزء نصل به إلى تأويلات عديدة (المضمون).

ويشترك محمد مفتاح وعبد المالك مرتاض في الانضمام إلى قائمة منتقدي غريماس حول مصطلح التّشاكل وحدوده، إلّا أن منطلقهما ينبع من خلفية واحدة. فالباحثان قد تشبّعا بدراسة الموروث العربيّ القديم، مع ما اطلعا عليه من الدّراسات الغربيّة، وقد جعلهما ذلك يتّفقان في موقف النّقد وكلٌ بطريقته الخاصة، حيث دعيا إلى ضرورة توسيع التّشاكل تشبّثا بالبحوث البلاغية العربية القديمة؛ فمبدأ التّكرار المُصاحب في تفسير التّشاكل يشمل صورا عديدة. وبحسب محمد مفتاح" يصبح متنوعا تنوع مكونات الخطاب، بمعنى أن هناك تشاكلا صوتيا، وتشاكلا نبريا، إيقاعيا، وتشاكلا منطقيا وتشاكلا معنويا [...] ومع هذا فإننا سنقترح بدورنا توسيعا أكثر للمفهوم"[11].

ولسنا نختلف بهذا العرض لدى الباحثَيْن من حيث توسيع مجال المصطلح، بقدر ما نحاول تسليط الضّوء عن مدى فهمِهما في تفسير التّشاكل عند غريماس والمقولة السائدة والتي يؤكدانها بقصْرِ التّشاكل عند غريماس في المعنى والمضمون دون الشكل. بل إن الاتهام طال غريماس بالتناقض والاضطراب بحسب قول مفتاح. ولكننا نؤكد مرة أخرى أن هذا الفهم يحتاج إلى مراجعة والابتعاد عن إصدار مثل هذه الأحكام العامة؛ إذ إن ما ساد التّشاكل من غموض وتعدّد مجالاته في البحث عن الدّلالة لدى غريماس، وهو ما أكّده بعض الدّارسين، نقصد به حقّ القطْعِ بالجزْمِ لإصدار أي حكم في هذا، وبرأينا أنّ الغموض في فهم التّشاكل عند غريماس نابع من التّداخل الدّلالي والمعنويّ داخل التّركيب، قبل التّمظهر اللّساني وملفوظه في حد ذاته، وأنّ هذا التّداخل هو متواليات نصّيّة يُكمِّل بعضُها بعضاً.

ولعلّ أحكام كل من مرتاض ومفتاح نابعة من تعلُّقِ فهْم التّشاكل في خلفية الباحثَين بالشّكل واللفظ وبكل مظهر حسيٍّ في اللّغة قبل المعنى، وهو ما تجلّى في البلاغة العربية، ودليل ذلك أن تطبيقات مفتاح في كتابه (تحليل الخطاب الشعري)

جسّدت مفهوم التّشاكل انطلاقا من ضبط عناصرَ شكلية، كما أن التّوسيع الذي أشار إليه كل من مفتاح ومرتاض قد أصاب توسيعا في الشّكل لا في المعنى–وإن كانا قد أقرَّ كل منهما بالمعنى– في حين يمكننا أن نجد من خلال انتقادهما لتشاكل غريماس توسيعا يشمل الشكل والمضمون معا؛ وليس لإغفال غريماس لتشاكل المضمون– إن صحّ– من مبرّر لكليهما في ترك تحديد دقيق لعناصر محدّدة للتّشاكل الدّلالي والمعنويّ، ولأن صور البلاغة العربية حسّية (من تشبيه واستعارة و جناس وطباق ومقابلات) في تفسيراتها –وتأثرهما بذلك– جعل كلٌّ منهما ينحو هذا المنحى دون انتباه.

إن أسبقية المعنى على الشّكل في البحث السّيميائي هو الذي يعطي الشّرعيّة لغريماس بتغليب تشاكل المعنى على تشاكل التّعبير، دون إنكار ضرورة وجود هذا التفسير وهو المفهوم الخاطئ الذي فهمه مُنتقدوه، كما أنّ تشاكل التّعبير(اللفظ) محدود، إنّه تمظهر خطابيّ له بداية وله نهاية، لذلك نجد غريماس لا يعوّل كثيرا على الشكل إلاّ من حيث كونه منطلقا وأداة نحو تأويلات لامحدودة، يَستصْدِرُ بها دلالات كثيفة ومتوالية تؤدّي في الأخير إلى تشاكلات معنوية عديدة، وهو المبتغى الذي كان يقصده غريماس لتوليد الدلالة.

3. التلقي الجزائري للمصطلح وإشكالية التوظيف:

يؤكد الناقد الجزائري فيصل الأحمر محاولات بعض البلاغيين العرب القدماء ملامسة بعض مكونات مفهوم التشاكل، وهي محاولات تميزت بالسطحية وافتقاد الخلفية التنظيرية، يقول: "وجود أصلٍ للمفهوم عند العرب سيكون بأبسط معانيه في مُتون المعاجم العربيّة القديمة، ولسنا بصدد الكشف عن الجذر اللّغوي بقدر ما يهمنا مجال اشتغاله الاصطلاحي ضمن علم من العلوم ولئن كان غريماس (في الدّرس الغربي) صاحب السّبق لتبني هذا المصطلح في الدراسات اللغوية، فإننا

لا نعدم وجود بعض المحاولات السابقة من طرف بلاغيين حاموا حول المفهوم دون أن يلامسوا جوهره ولُبّه"[12].

وينبه عبد المالك مرتاض بعد استقراء مفهوم مصطلح التشاكل في الموروث العربي القديم " على وجود ما في بعض هذا المصطلح (التشاكل) من معنى في البلاغة العربية [...] إذ وقع لنا نص عجيب للشيخ عمر بن مسعود المنذري يذكر فيه من كتاب مخطوط عنوانه (كشف الأسرار المخفية، في علم الأجرام السماوية والرقوم الحرفية)، ألفيناه يصطنع فيه مصطلحي (المشاكلة) و(المقابلة)، فازداد اقتناعنا بعظمة التّراث العربيّ الإسلاميّ"[13]؛ وإن كانت إشارة إليه حول المشاكلة تقترب من ظواهر كونية محسوسة لعلوم مخصوصة يبتعد عن مجال اللغة، ثم يستطرِد مرتاض –في البحث نفسه– فيما جاء به الجاحظ في استخدامات المصطلح وقُربه من معنى الاصطلاح السيميائي الغربيّ، حيث أطلق عليه لفظ (المشاكلة).

وتطرح الدراسات العربية في قضية الأخذ من النظريات الغربية إشكالية التعامل مع المفاهيم والمصطلحات من حيث التوظيف ومن حيث توحيد المفهوم دون اللجوء إلى الاختلاف وبسط العديد من المصطلحات للدلالة على مفهوم وإجراء واحد؛ وقد يبرر ذلك باختلاف المرجعيات والخلفيات الفكرية والثقافية لكل دارس، غير أن هذا قد لا يخدم وضع الأسس الصحيحة لأي نظرية نقدية في تثبيت أرضيات رصينة لها في البيئة العربية، وقد أثرنا مرحلة من مراحل التلقي السيميائي العربي تخصُّ مرحلة خطاب الترجمة وتعريب المصطلح يمكن الرجوع إليها[14]؛ فيختار كل باحث عربي أخذ هذا المصطلح السيميائي–التّشاكل– بما يوافق قناعته الفكرية والذاتية،.

ويتناول فيصل الأحمر توظيف ثلة من أقطاب النقد السيميائي الجزائري لمصطلح التّشاكل بعِدَّةِ مسمياتٍ –دون أن يغفل ذكر بعض النقاد غير الجزائريين من أمثال: الناقد محمد مفتاح المغربي الذي استخدم مصطلح (تشاكل)– وأنور المرتجي اختار (الإيزوطوبيا) في كتابه سيميائية النص الأدبي، ورشيد بن مالك وظف مصطلح (الإيزوتوبيا) في قاموس مصطلحات التحليل السيميائي، وبسام بركة استخدم (تشاكل، تماثل في الشكل) في معجم اللسانية، وفي موضع آخر استخدم (تكرار– والمنظومة الدلالية)، وعند التونسي ناصر لعجيمي (القطب الدلالي) في الخطاب السردي، أمّا النّاقد سعيد علوش، فيطرح مصطلح (التّناظر) في كتابه معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، كما يوظف محمد القاضي بديل التّشاكل (محور التّواتر)، ويُؤثِرُ الناقد الجزائري عبد المالك مرتاض استخداما متعددا لمفهوم التشاكل بمصطلحات مختلفة (المشاكلة)،(التشاكل الاحتيازي)[15].

ويقدم عبد الملك مرتاض إجراءه غير المسبوق باعتماده القراءة التّشاكلية كما في تحليله السيميائي لقصيدة شناشيل ابنة الحلبي معتمدا بدائل اصطلاحية، ويصرح بقوله: "وقد ارتأينا أن نتناول نصّا شعريا نقرؤه على نحو نحاول فيه ابتكار إجراءات القراءة فيه ما استطعنا[...] بالقراءة على سبيل التّشاكل، واللاتشاكل (التباين)، والتقاين أو التماثل، والقرينة، والرّمز، والحيّز، وقد اصطنعنا مصطلح التقاين [التماثل] لأوّل مرة في العربية، وقسمناه على التشاكل على أساس أن النّصّ الشّعري في معظم الأطوار يمنحنا مظاهر مُماثليّة"[16]؛ وآثر الناقد الجزائري عبد القادر فيدوح في كتابه (دلائلية النّص الأدبي) مصطلح التّشاكل والقرين الدّلالي والنظر الدّلالي.

ويقدمّ رشيد بن مالك في معرض قراءته السّردية لقصة عائشة، رأيا نتّفق معه في جلّ جوانبه حول الإشكالات الاصطلاحية –نظريا وتطبيقا–، فإذا كان

الخطاب العلمي الغربي الجديد مع السيميائية خاصة قد بُني على أسس اصطلاحية تحيلك إلى مرجعيات علمية مُحدّدة لا يمكن للباحث أن يشتغل عليها بقطع النظر عن المعرفة المُسْبقة لحقولها المعرفية؛ فإن نلحظ من خلال معاينتنا للوضع الاصطلاحي في البحوث السيميائية الأوروبية المعاصرة إجماعا حول الاصطلاحية المعتمدة؛ وإذا كان الأمر كذلك، فإن وضع المصطلحية السيميائية في العالم العربي يختلف تماما عما هو عليه في أوروبا، إذ لم يرق –بحكم التّضارب الموجود في المصطلحات المستعملة– إلى بلورة نموذج مؤسس لخطاب علمي دقيق يضبط مفاهيمه وأدواته الخاصة به سلفا[17].

ويبقى هذا الاختلاف الاصطلاحي مثارَ جدلٍ وانتقادٍ لدى الدّارسين حتّى ممن وقعوا في مزالقه، واصطنعوا إشكالات توظيفه، معترفين باضطراب المفاهيم دون العمل بقواعد استحداثها ونشوئها العلمية، حفاظا على ثبات المنهج ونجاح الدّراسة وتقصّيها وفق الأصول والمنابع وضمن هذه المنظومة الاصطلاحية السيميائية.

قراءة في دراسة عبد القادر فيدوح (دلائلية النص الأدبي)

– الإجراء المنهجي المعتمد:

يعرِضُ عبد القادر فيدوح في كتابه دلائلية النّص الأدبي نموذجه النّظري والتطبيقي في قراءةٍ، لعل ثقافة الموروث أكثر ما تستند إليه، وهي تجمع من جهة بين الأصول العربية وبين المنهج الحداثي، ومن جهة أخرى بين الإبداع المحلّي والقراءة النقدية والإجراء السيميائي بانتقاء التّشاكل أداة لهذه القراءة، والأخذ بالتأويل بُعْدًا يتّسعُ به إنتاج دلالات النص وذلك لكونه عملية سابقة في الموروث العربي القديم عند أهل اللغة والبلاغة والتفسير – كما أشار في البداية – وكون التأويل أو التأويلية إستراتيجية غربية عرفت فلسفة خاصة في قراءة اللغة.

ويختار الباحث كغيره من النقاد نصّا شعريّا أصيلا في بيئته وباعثا لتاريخه، وينتقي له المنهج المناسب والقراءة المنفتحة على أصول النّصّ الإبداعي، دون قَسْرِ قيْدٍ يُلجِم النّص بالقراءة الموجَّهة، ويُؤسّس منذ البداية –نظريا– لقراءته السيميائية بالتّطرق إلى تطوّر الدّراسة السيميائية عبر التاريخ، وكيف عرفت انتقالها النّوعي في العصر الحديث، بروّادها واتّجاهاتها، ويُقدّم في الأخير مجال اشتغالها بين جناحي البحث الأوروبي والأمريكي.

ومادام الدرس السيميائي يعتمد التّأويل الدّلالي في قراءة النّصوص، فقد كان من الضروري بحسب الباحث تركيب القراءة عنده بمفهوم التّأويل، حيث قدّم جهود العرب فيه، كما قدّم أيضا تأسيسه الغربي ليُراهِن بذلك على قراءته التأويلية، معتبرا السّيميائية التّأويلية قراءة تطرح أسئلة متوالية لا تتوقّف، فالنّص يحيلك دائما – بعد إجابة– إلى سؤال موالٍ وهو منطق التأويل؛ لهذا فإن " اعتراض القراءة التأويلية على اعتبار النص جواب جاهز لسؤال [...] يخضع لمعايير التّأويل التّأملي المتّجه نحو كومة من التّساؤلات التي لا تستقرُّ ولا تنتهي في جواب، وهكذا يدخل النّص حلبة التّبادلات بين الأسئلة والأجوبة لتتحوّل القراءة السّيميائية في تأويلها المشروط إلى رهان تساؤل الخطاب [...] ومن ثمّة يؤدي كلّ نصٍّ إلى طرح سؤال جديد، وهكذا تتعدّد المعاني، بتعدّد الأسئلة، بحيث يتوارى خلف كل سؤال أفق لتوقّعات منتظرة"[18].

وعندما يختار الباحث إجراء التأويل أساسا لدراسته النصية، فإنه يريد بذلك تحديد أدواته بدقة تحت مسمى التأويلية ليقف عند إجراء التّشاكل من حيث هو قراءة للدّلالة، ترتبط ارتباطا مباشرا بمفهوم التّأويل؛ الذي–بحسب الطرح الحديث–" يتجنب التّعامل مع القراءة ذات الاتجاه (الواحدي) إلى اقتراح نماذج بحسب التّفاعل المتبادل مع المتلقّي[...] (و) فعل النص[...] لإعادة تركيب تشاكل النص وفق بصمات

مشاعر الخبرة الثّقافية –لكل قارئ–"[19]؛ وهكذا تكون التّأويلية لدى الباحث مطيّة تحقّق التّشاكل النّصي، وتبادلا إجرائيا بينهما يستخدمه الباحث في الوصول إلى معاني النّص.

كما ينبغي الإشارة إلى اختياره المنهجي السيميائي باعتماد أدوات أوسع تصْطفُ فيها آليات ومفاهيم مختلفة يعضده مفهوم التّفكيك للأخذ به مصطلحا وأداة لا غير، وكأنه سيعتمد في تأويلاته على تفكيك الوحدات النصية وإعادة قراءتها، خاصة عندما أشار إلى " التيار التفكيكي الذي يتزعمه جاك دريدا بإعطاء الأدوات المعرفية الشأن الأعظم لحيثيات النص الذي يمكن أن يُقرأ بتجاوزٍ لمعناه التواضعي والاصطلاحي"[20]؛ وقد يبرر أخْذه بهذا المصطلح بتأثره بالنّاقد عبد المالك مرتاض وتبنيه لمفهوم التّركيب المنهجي، إذ ليس للتفكيك عنده من إستراتيجية نظرية يأخذ بها، فقد لا نعرف له تجربة تُذكر في الدّراسة التفكيكية.

ويؤكد في تأسيسه المنهجي لهذه الدراسة عن مفهوم التفكيك ملخصا هذا المسعى قائلا: " ولعلّ المغامرة السيميائية في محاولتها فك رموز الخطاب [...] هي طموح إلى هدم الجدارية المعيارية الثابتة ونفي للتوثيقية، ونزوع إلى تفكيك النّص وتشريحه، وفق أدوات إجرائية تستند إلى رصيد معرفي [...] وضمن هذا الإطار جاءت قراءتنا لنصّ بكر بن حمّاد [...] محاولة لمقاربة نصّ قديم في ضوء أساليب وأدوات حديثة"[21]

إن نزوع الدراسة النصية عند فيدوح باعتماد التركيب المنهجي يدفع بالضرورة إلى ضبط المفاهيم والمصطلحات تحت هذا الإجراء، وليتسنى لنا معرفة القراءة المسبقة لديه تفاديا للبس والغموض من جهة، وتأكيدا لتلك المرجعيّة المعتمدة في القراءة من جهة ثانية، سنحاول الإجابة عن السؤال التالي: كيف تمّ توظيف الجهاز الاصطلاحي المعتمد؟

- قراءة النص وإجراءات المنهج:

- حدود توظيف المصطلح:

يقرأ النص من خلال أدواته وإجراءاته، فهي ما تعكس فضاءات تحليله وتفسير بنياته، كي نقترب من أدق التفاصيل التي يحتويها هذا النّص عبر جملة من المفاهيم والمصطلحات، وعليه يتجاوز توظيف المصطلح عند النّاقد عدة مصطلحات بداية مع السّيميائية منهجا للدّراسة، وحين نقف أمام اختياره مصطلح الدلائلية في العنوان، يتبين لنا محدودية التزامه بحمولات هذا المصطلح، كما أننا نتفق في مسألة استخدامه مصطلح السيميائية في عنوان فرعي مع القائل: " ويزداد الأمر تعقيدا حين نلفي الناقد يستعمل مصطلحات أخرى –أثناء الممارسة– للدلالة على المفهوم نفسه كالسيميولوجية والسيميوطيقية والتأويلية"[22]، وهو ما يفقد توظيف المصطلح سمة الدقة والضبط المنهجي.

يؤسّس فيدوح من خلال مراحل قراءة القصيدة منهجيّا لمنطلقه السيميائي بداية بإجراء التّشاكل، ويكشف عن تبنيه التوجه الأوروبي الفرنسي، ويتصرف مع هذا المفهوم باضطراب شديدٍ حين يستعيض عنه بمصطلحات أخرى، إذ يستخدم في الصفحات (35–36–37) القرين الدلالي، ثم يتحول إلى في الصفحة (35) النظير الدلالي، وينتقل في قراءة موالية إلى اختيار مصطلح التشابه في الصفحتين (38–39)، وبعدها يوظف مصطلح بنية التّشابه في الصفحة (50) في حديثه عن التراكيب البلاغية والصور الشعرية لإبراز مجموعة من العلاقات الدلالية بين القاصد والمقصود.

ثم يسترسل في أثناء التّحليل حيث يلجأ إلى اصطلاح آخر هو: التقابل والتشاكل في الصفحة (46)، ولأنّ النّص يحمل بنية جدليّة، فقد استدعى ذلك استنباط مجموع التّقابلات والتشاكلات التي بنيت عليها دلالات النص؛ ويقدم لهما

فروعا من تشاكل الألفاظ وتشاكل الجمل وتقابل الألفاظ إضافة إلى تقابل الجمل في الصفحة (47-48)، وفي موضع آخر ينحت معنى آخر للتشاكل وسمه بـ التضاد التأويلي في الصفحة (40)، ويستعير الناقد مفهوم التّماثل الإيقاعي بديلا للتشاكل في تناوله لظاهرتي الوزن والقافية وهما من ركائز الخطاب الشعريّ.

وتغدو الدراسة وفق هذا المفهوم زخما مُوسعا من المصطلحات في معجم حاول فيه المزواجة بين المصطلح الغربي والعربي معا، ظنا منه أن ذلك يخدم قراءته النّقدية، في حين يكشف لنا هذا عن عدم قدرة الناقد التحكم في جهازه الاصطلاحي، وإن كان ذلك أيضا يُبِيْنُ عن خلفية مُزدوجة في الأخذ بحداثة المنهج وموروث البلاغة القديم.

وقد يدفعنا ما سبق إلى طرح هذا السؤال: هل يمكن الاكتفاء في قراءة هذا النص بالتركيب المنهجي الذي رآه النّاقد مناسبا؟ أم أن طبيعة النص قد تفرض أكثر من هذا الإجراء؟، لعل غنى هذا الموروث الإبداعيّ بصور التّاريخ والتحوّل الذي أصاب البيئة العربية عبر مراحل زمنية متعاقبة، إضافة إلى تعدّد الأفكار في الثقافة الواحدة برؤى مختلفة، يجعلنا نُجِيزُ عدم الاكتفاء بالتّأويلية والتشاكل وحتى التّفكيك الذي أشار الناقد إليه متبنّيا إيّاه دون وضوح، باستحضار مفهوم التناص أداة فاعلة لم تُثِر اهتمام النّاقد من خلال استظهار التاريخ بنص سابق مماثل وهو قصيدة قاتل سيدنا علي كرم الله وجهه عبد الرحمان بن ملجم- وصورا أخرى مماثلة قد تكون إشارات واضحة أقرب لمفهوم التناص الذي يُقدّم هو أيضا نمطا موازيا من أشكال تقاطع النّصوص عبر الزّمن، مبرزا تشاكلات عديدة سواء على مستوى الشّكل أم على مستوى الدّلالة والتّأويل (المعنى).

بل نجد كذلك للخطاب القرآني تعاليا يُعيد تواجده في نصّنا هذا قد غفل النّاقد الإحاطة به، لهذا فمن المهم الحرص في الأخذ بهذه الزاوية من التحليل،

خاصة وأن النص يمثل بؤرا منفتحة ومليئة بتدافع النّصوص حين نقرأ الشّخصية – موضوع القصيدة– في مقابل شخصيات في التاريخ حملت نفس المبادئ وانتهت إلى ذات المصير، ويكفي أن ما يجعل الباحث متجها نحو إجراءات محدّدة هو طبيعة النّص الشعري وما يحمله من شحنات، ألا يكون من الأولى أن يقترن مفهوم التّشاكل بإستراتيجية التناص حيث يكمّل بعضها بعضا.

فالعودة إلى قراءة الموروث بآلية فاعلة –التناص– سيخترق بها مستويات النص الدلالية وطبقاته التاريخية، فالتاريخ بواقعه –في هذه اللحظة– قد أعاد نفسه، ولم يتأخر الإبداع أن ينص متعالِيا بمثل ذلك، فهيمنة صور الماضي وتكرارها قد يدفع نحو تبني هذا الإجراء؛ بل أنه يصرح مؤكدا منذ البداية بحقيقة توجهنا المقترح –التناص– من أن التأويل يحدث تشظيات النص إلى نصوص أخرى " فتقترب النصوص فيما بينها لتشكّل مجريات التناص من خلال تفكيك الصورة الكلية إلى وحدات جزئية يكون التأويل فيها متساوقا مع وحدة الرؤية الممكنة، ووحدة نتاج تفاعلات المحصلات الخبرية المتساوقة والمتصارعة لتوليد أشكال جديدة من التأويلات"[23].

وقد تستوقفنا محاولة الناقد الجزائري في التأسيس لمجموعة من المفاهيم تحت إجراء التشاكل مثل مصطلح (التضاد التأويلي)، وهي خصيصة تميزه قد يحوز بها فصب السبق في النقد الجزائري المعاصر والنقد المغاربي بشكل عام؛ يضاف إليها ما استعاره من مفاهيم من الدراسات العربية السابقة مثل مصطلحي: النظير الدلالي، القرين الدلالي،

4.خاتمة:

ونخلص بعد دراستنا إلى مجموعة إلى النتائج التالية:

*–يعد مفهوم التشاكل إستراتيجية شاملة تحليلا وتفسيرا من حيث كونه أداة سيميائية.

*–تحتاج فكرة بعض الدارسين بخصوص اقتصار المنظر غريماس على حدود المضمون في تناوله مفهوم التشاكل إلى إعادة نظر وقراءة نقدية دقيقة.

*–اشتغلت الدراسات البلاغية العربية القديمة على مفهوم التشاكل بصورة أوسع وأشمل سواء على مستوى المصطلح وتعدده اللغوي، أم على المستوى الدلالي، وهو ما يدحض ادعاء أن التشاكل كان عند العرب: حوم وإشارات وفقط.

*–قدمت الدراسة قراءة منهجية متعددة التركيب المنهجي بتوظيف مفهوم التشاكل عنصرا وأداة بارزة إلى جانب التأويل والتفكيك وحتى التناص.

*–كشف إجراء التشاكل في ظل هذه الدراسة عن إشكالية التعامل مع المصطلح في النّقد الجزائري المعاصر، مما أبان عن اضطراب الناقد في الاشتغال عليه وحدود توظيفه، كما زاوجت الدراسة تحت إجراء التشاكل بين المصطلح الغربي الحديث والمصطلح البلاغي العربي القديم.

5.المراجع

[1]– ناصر لعجيمي: في الخطاب السردي (نظرية غريماس)، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1، 1993، ص29.

[2]– نفسه، ص29.

[3]– نفسه، ص87.

[4]– فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص235.

[5]– نفسه، ص235.

[6]– محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدر البيضاء، المغرب، ط1، 1985، ص19.

[7]– محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدر البيضاء، المغرب، ط1، 1985، ص19.

[8]- جوزيف كورتيس: مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، تر جمال الحضري، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2015، ص81.

[9]- نفسه، ص81.

[10]- نفسه، ص65-66.

[11]- محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، ص20.

[12]- فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، ص236.

[13]- عبد المالك مرتاض: نظام الخطاب القرآني(تحليل سيميائي مركب لسورة الرحمان)، دار هومه للطباعة والنشر،الجزائر، ص157.

[14]- محمد درويش. نور الدين كنتاوي: تقويم سيميائية غريماس في النقد الجزائري المعاصر، مجلة آفاق علمية، المركز الجامعي تامنغست، الجزائر، المجلد11، العدد04، سبتمبر2019، ص523.

[15]- فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، ص242.

[16]- عبد المالك مرتاض: التحليل السيميائي للخطاب الشعري (قصيدة شناشيل بنت الجلبي)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 2005، ص16.

[17]- رشيد بن مالك: تحليل سيميائي لقصة عائشة، مجلة بحوث سيميائية، العدد16، ديسمبر2001، جامعة تلمسان، الجزائر، ص109-110.

[18]- عبد القادر فيدوح: دلائلية النص الأدبي (دراسة سيميائية للشعر الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1993، ص3.

[19]- نفسه، ص29.

[20]- نفسه، ص29.

[21]- نفسه، ص33.

[22]- يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، ص134.

[23]- عبد القادر فيدوح: دلائلية النص الأدبية، ص30.